فصل اول

إنبعاث"سيدة القارورة"

منذ أعوام، بدأت حكاية الشاب (آدم) مع تلك المرأة العجيبة : (امرأة القارورة).. حكاية ستبدو لكم لا معقولة واندهاشية الى حد بعيد، لكنها رغم ذلك حقيقية. من الصعب التأكد إن كانت المصادفة البحتة وحدها التي جمعتني بأبطال هذه الحكاية أم هي قوة القدر المتلبس بهيئة مصادفة بريئة؟

قبل أن يلتقي (آدم) بحورية قارورته، قبل هذا الحادث بأكثر من تسعة أعوام، بالضبط في شتاء عام 1978، قرر الرحيل عن بلاده ومدينته بغداد. كان عمره قد تجاوز العشرين بعامين. مثل معظم أبناء جيله، كان يعيش وضعاً قلقاً بسبب الأوضاع السياسية المربكة والعنيفة، إضافة إلى فشله في مشاريعه الحياتية، وتفاقم خيباته مع النساء. هذا ما رسخ قناعاته بإستحالة تحقيق أحلامه بالحرية والمجد إلاّ خارج الوطن.

يوم رحيله، كان (آدم) مرتبكاً قلقا بسبب خوفه من حدوث أي طارىء قد يؤدي إلى منع سفره واعتقاله. بعجلة جمع أغراضه في كيس بلاستيكي، وخفية ألقى نظرة وداع أخيرة على أمه واخوته. قبّل اخته بسريّة لأنها الوحيدة التي كانت تعرف بقرار رحيله.

ما أن شرع في خطوته الأولى نحو الباب، في تلك اللحظة لم يدر اي نداء سحري رجّ بين جدران صدره يدعوه إلى أن يعود أدراجه. كالمجذوب، اتجه مباشرة إلى الغرفة الكبيرة. من تحت سرير والديه أخرج صندوقا خشبياً عتيقاً يحتوي على بقايا ذكريات أبيه الذي توفي العام الفائت. كانت هناك اكوام ذكريات مُغبرة، تختصر حياة رجل هجر أهوار الجنوب وهو فتى في بدايات القرن بعد حكاية غرام خائبة. أتى إلى بغداد ليصبح عسكرياً يخوض الحروب ضد قبائل الوطن المتمردة، حتى هدّه العُمر ليموت على سرير محاطٍ بأبناء وبنات، نظراتهم ذكّرته بزعماء القبائل التي حاربها.

كان (آدم) حائرا، لا يدري عما يبحث. هناك صور شاحبة وخنجر يمني معقوف ومسدس انكليزي وحربة عسكرية على حواشيها دماء صدئة وقطع نقدية من عهود بائدة وأصداف بحرية وتعاويذ دينية ولوحة فطرية تمثل(الإمام علي) محروساً بأسدين، ثم مفاتيح وأقلام وتماثيل أثرية تعود إلى حضارات الوطن المختلفة... هناك وقعت عيناه على القارورة! كانت قارورة جميلة منحوتة من خشب الصاج الأحمر، ذات هيئة متماوجة كجسد أنثى. دون تفكير امتدت يده إلى القارورة. وضعها في الكيس ورحل خارج البلاد.

فاتني أن أخبركم أني كنت أعرف (آدم) منذ أن بدأنا معاً ندرك الحياة. لا أعتقد أن ثمة شيئاً في الوجود يحيطه الغموض بالنسبة إلينا مثلما يحيط علاقتنا. ربما سيتاح لكم فهم ذلك في مجرى الحكاية. المهم أننا كنا في وضعية خاصة، نعيش معا، لكن في فصام دائم وصراع حاد يكاد يصل إلى العنف، لولا قوة مصير جبارة

كانت تحتم علينا حباً وتعاوناً. سافرنا معاً، ومعاً خضنا تجربة اغتراب وتفتيش عن حلم. كنا كعنصرين سالب وموجب، بإندماجنا نصنع كهرباء وجودنا.

في طفولتنا كنا عندما يحل المساء، نحن اطفال احياء الطين المنتثرة كبثور في جسد بغداد، بعد ان نكون قد أمضينا نهارنا في قتل عصافير وكلاب وقطط، وتعاركنا بحجارة، وغرق أحدنا في مستنقع أو في نهر دجلة القريب، وسرقنا وتمرغنا بالأتربة وتعفرت أجسامنا بخدوش وجروح وامراض، وتعلمنا شتائماً فاحشة جديدة اثناء مزاولتنا لـ"برائتنا" بحرق قوافل النمل، في المساء نهرب إلى بيوتنا لتستقبلنا (أحضان) أمهاتنا بصفعات واعقاب نعل بلاستيكية مصحوبة بلعنات ومشاجرات بين الجيران والإستغاثة بسلطة الله واب جبار. في الليل نغفو في عراء على رؤى سماء تتوهج بأقمار ونجوم تشبه عيون الحيوانات التي قتلناها.. نغفو ولم تزل ملتهبة عنيفة ذكريات نهارنا وحكايات امهاتنا عن سعلوات وطناطل وكائنات ممسوخة وجن قاطنين في طبقات أرض سفلى، يخرجون لنا متنكرين بهيئات قطط وأشباه بشر! كم من ليال أمضيناها مختنقين تحت أغطيتنا خوفاً من (عزرائيل) ملاك الموت ومن جهنم، حتى نستيقظ في الصباح مبللين بعار ورعب عقاب منتظر.

شاءت المصادفة أن أكون سبباً في إنقاذ القارورة. كنا في الباص الراحل من بغداد إلى اسطنبول، وما أن رأى (آدم) رجال الأمن عند الحدود حتى استبد به خوف وأراد أن يرمي القارورة خشية أن يجدوا فيها دليلاً ضده ويقتادونه مثل كبش عيد بأيدي حجاج متعجلين. أخرجها من حقيبته وكاد يرميها عند خرائب الحدود. لا أدري أية قوة خفية دفعتني إلى أن أتشبث بها، كما لو كانت بطاقتي الحزبية المحشورة في بطانة سترتي. أمسكت يده المرتجفة وتناولت منه القارورة من دون كلمة ووضعتها في حقيبتي، وتوكلت على الشيطان. بعد أن اجتزنا الحدود دون متاعب تذكر، أخرج (آدم) القارورة، قبّلها وقبلني ثم دمعت عيناه كطفل.

* * *

دون أن اطيل عليكم سرد التفاصيل، ولكي تكونوا على بيّنة بظروف العلاقة بين (آدم) و(إمرأة القارورة) هذه، فإنه قبل أن نصل إلى جنيف كنا قد أمضينا أعواماً من الترحال بين مدن الشرق الأوسط وشرق اوروبا. مشاغلنا أنستنا تماماً تلك القارورة القابعة في أعماق حقائب عتيقة وغرف فنادق رخيصة ومخيمات تدريب عسكري وقطارات وغابات وقصور مهجورة. بعد ثلاثة أعوام ترحال بين بلدان وتجارب خائبة، استقر مقامنا في مدينة جنيف ببحيرتها المتموجة بفضة زرقاء خضراء، والراقدة بين سلستي جبال الألب وجيرا.

وصلنا صيف 1981، أوائل اندلاع الحرب. ثلاثة أعوام عربيدة من البحث والتجوال حتى قادنا قطار الزمن إلى هذه المدينة المهذبة. اختلفنا أنا وإياه كثيرا وتصارعنا كثيراً، وتحالفنا وتعاونا كثيراً. قد يصح القول إنه كان الفكر والتعقل والخوف والإنطواء، وأنا كنت الروح والشهوة والتهور والاندفاع. للخلاص من منفى وطن اخترنا أوطان منفى، بعد ان غدت حياتنا كقطار سريع يفرض علينا التعرف إلى أناس والمرور بمُدن وتعلم لغات جديدة وأسماء مزيفة وأفكار وأحلام وثورات وانتكاسات، مندفعين إلى الأمام بلا عودة إطلاقا.

تعلمنا لغة السلاح، خططنا لثورات خائبة، تشردنا وجعنا وسرقنا وسجنا. امضينا ليالي في قطارات وبيوت مهجورة ونحن نحلم بسجن نظيف لعله سينقذنا من الموت برداً في حدائق أوروبا، حتى استقر بنا المقام هنا.

منذ ان وصلنا إلى جنيف اختار هو الزواج والاستقرار والعزلة وتكريس كل شيء من اجل المستقبل. أتقن اللغة وتعلم إدارة الحاسوبات واشتغل. يحلو له احياناً أن يهمهم أمامي بعبارة مكررة:

- "ماضيّ موحش وقاسي كالدغل، كلما اقتلعته، رغماًعني ينبت في حديقة حاضري"!

لا أدري إن كان يعتبرني أنا أيضاً من بين ذاك الدغل؟

قبل أن تظهر لنا (سيدة القارورة) وتفتننا بخوارقها وعجائبها، كان (آدم) يمضي حياة هادئة في شقة صغيرة مع زوجته (مارلين)، فتاة وديعة من بنات هذه المدينة. كانت تشاركه ذلك الشغف العظيم إلى الجمال المقدس. لعله قد وجد فيها الكثير مما حرم منه في حياته: بتواضعها ورقتها وصفاء روحها وجد بعضاً من توقه إلى حنان الأم وشفقتها. في ملامحها الطفولية وعينيها الخضراويتين المندهشتين وجد صورة (ايمان) معبودة طفولته إذ لا تزال جذورها حية في أعماقه. في ذكائها وفضولها للمعرفة والبحث وجد فيها رفيقاً أنيساً يشاركه في لعبة السؤال والجواب السرمدية. خصال زوجته هذه كانت كافية لكي يعشقها ويخلص لها، لكنه ظل أبداً يحس بحرقة نيران التوق إلى (سجينة) رأسه، تلك المرأة الغامضة التي سوف احدثكم عنها فيما بعد. منذ عشرين عاماً وهي تقطن روحه. منذ أن فارقته لتدفن حية لبثت في ذاكرته لتقض مضجعه وتسبب له كآبة وحيرة مشاعر إزاء جميع النساء!

هكذا اكتفى (آدم) بحياته العائلية وإنقطع تماما عن كل ما يمت الى الوطن بصلة. رغم تعاظم الفرقة بيننا، إلا اني كنت الشخص الوحيد من أبناء بلده الذي يلتقي به، وبين فترات متباعدة.

أما أنا، فقد تفاقم عبثي وتعاظمت شهواتي لكل ما هو ممنوع ومحرم في حياتي السابقة وحيوات حتى أسلافي. كنت أنا دائماً ذلك المراهق الطائش، الشهواني العربيد المتشبث بتلابيب الحاضر حتى يرد إليّ أضعاف وأضعاف ما اغتصبه مني في الماضي. انغمست بعنفوان قياسي في عوالم من نساء وخمرة وحشيش ورقص حتى الفجر. جربت كل المحرمات ومبدئي أن أفعل كل ما اشتهيه ما دام لا يؤذي الآخر.

مع الأعوام وتطبع(آدم) على الحياة الجادة المنظمة، كانت روحه تهرم أكثر فأكثر حتى صار اشبه بشيخ عاقل بعد ان يأس من حلم نبوّته وثورته الفاضلة. يبدو انه وجد في عوالم حاسوبه (الكومبيوتر) تعويضاً عن فلسفات التغيير ونظريات تعقيم الشعوب، وفي حنان زوجته ما يعوضه عن دفء أحضان القضية!

كان يحلو لي احياناً أن أمزح معه بوصف معضلتنا بأننا كنا سمكتين بلون واحد هو الأحمر، ثم إنحدر بنا الزمن إلى نهر ماؤه أصفر وسمكه أصفر. أنا احاول البقاء بلوني الأحمر وهو يحاول أن يستحيل إلى أصفر، بينما الواقع يفرض اكتسابنا لوناً برتقالياً ينتج عن امتزاج الأحمر والأصفر. إننا كما يقول الروس، خرجنا من الريف ولم نصل إلى المدينة. ربما يكون (آدم) مثل معظم الأخلاقيين والمحافظين، يستغنون عن الشيء ويتجنبونه، لا لأنهم يمقتونه أو يرفضونه، بل لأنهم يئسوا من امتلاكه والسيطرة عليه!

مهما فكرت يصعب علي تحديد الفوارق بيني وبين (آدم). لم يكن تناقضنا وحده هو الفارق بيننا، إنما لأن في كل منا تناقضات تجمعنا وتشتتنا في نفس الوقت، أشبه بجيوش مهزومة قد ضاعت فيها الأمجاد والمراتب. يحدث أحياناً أني أنعته بأوصاف أجهل بأني احملها ايضا! من الصعب تكوين رأي بخصوص بعض الفوارق الحياتية الواضحة بيني وبينه. كان يكافح ماضيه بنسيانه وتجنب كل ما من شأنه أن يذكره به، وخصوصاً ابناء وطنه.. أما انا فكنت اعرف جيدا ان ماضيّ وحش يلاحقني اينما رحلت، وليس هنالك من حل غير الإلتفات اليه ومراوغته واللعب عليه لعلي انجح بتدجينه وتحويله الى كلب وفي!

* * *

ذات يوم، أعتقد في شتاء 1988، هبط (آدم) إلى القبو ليجلب أدوات التزحلق على الجليد ليمارس رياضته المعهودة مع زوجته. أثناء نبشه الأغراض المتراكمة في الزحمة، لمح القارورة! كانت مركونة في زاوية مثخنة بعتمة ورطوبة وخيوط عنكبوت، متكئة على حائط كأنها تستريح من انتظار. رغم عجلته وانتظار زوجته، فإن رعشة تأنيب ضمير سرت ببدنه واشتعلت في قلبه جمرات حنين إلى ماضيه. تذكر موت أبيه وحاجياته العتيقة. تخيل مشهد أمه وحيدة في دار خوت من أبناء وبنات. الذين لم يخطفهم الزواج والقبر والمنفى، فإن الحرب قد أتت وأتمت خطف الباقين. أعوام تسعة مضت على فراقهم، صورهم امتزجت بصور حرب كان يتحاشى حتى الإنصات لأخبارها. سبعة أعوام الحرب قد فاقمت في ذاكرته شحوب صورة الوطن وقتامته. لم يرث من تاريخه غير الخوف. في طفولته، كان يمضي ليالي أرق خوفاً من الموت، ان ينام ولا يستيقظ. كان يخاف جهنم بعد أن وصف أبوه انواع عذاباتها التي تجعل (حتى شعر الأصلع ينبت ويقف)، هكذا علقت بذلك امه ذات مرة وهي تشير إلى رأس ابيه. كان(آدم) في حقيقته يتمنى الموت مبكراً. لأنهم قالوا إن الله يغفر ذنوب الطفل حتى سن السادسة. طريقه مضمون إلى الجنة! منذ ذلك اليوم تعرف أحدنا إلى الآخر، هكذا كأننا توأمان في بدن واحد. هو عاشق للموت من أجل نسيان بؤس الحياة ولبلوغ الجنة، وأنا من أجل نسيان الموت كنت اخلق لذة الجنة في لحظات الحياة.

امتدت كف (آدم) إلى القارورة، وراحت أصابعه تمسدها وتمسح عنها الغبار. تساءل من أين حصل عليها أبوه: هل ورثها عن أهله أم اشتراها أم غنمها في حرب.. من يعلم؟ فكر في السّر الذي جعله يجلب هذه القارورة ويحملها معه عبر تلك المدن والأعوام. رغب ان يأخذها ليضعها بين تحفيات بيته، لكن يداه ترددتا بلمسها. خشي أنها ستكون عذراً للآخرين لأن يسألونه عن بلاده. الماضي يرعبه. كان مثل سجين هارب يتحاشى لقاء سجانه. لكني أعرف جيداً أن (آدم) مثلي، لم يمر أسبوع دون أن يعيش كابوس عودة مرعباً: حلم خانق، يجد فيه نفسه قد عاد إلى الوطن.. لا يعرف كيف حدث هذا؟ إنه بلا أوراق شرعية والجميع يطاردونه.. حتى عائلته تتجنبه لأنه سيجلب لها الدمار! لحظات من كابوس تعادل في عذاباتها ورعبها ساعات يقظة.. دماء وخوف وعيون جاحظة وحواجز عسكرية وضياع وسؤال صارخ :

"كيف عدت وكيف أهرب مرة أخرى؟!"

انه كابوس جميع من في المنفى. نجحنا في الهرب من سجن الماضي، ولم ننجح في جعله يهرب منا.. انه يصرخ فينا ساعات صحونا، ويستولي علينا ويحبسنا في زنازينه ساعات نومنا!

على اي حال، بينما هو في القبو أمام القارورة، انتبه إلى أصابعه تتلمس حافة غطاء قابل للتحريك. لم يكن يخطر في باله أن للقارورة جوفاً وغطاء! حرّكه واداره حتى تراخى وأخذ يرتفع. انتابه إحساس غامض من الرهبة كأنه مقبل على لقاء عزيز ينتظره منذ اعوام. كان في لهفة بدائية لإكتشاف جوفها. قال إنه سيحولها إلى مزهرية تتدلى منها وردتان، واحدة بيضاء كحليب، واخرى حمراء كنبيذ.

فجأة، اندفع الغطاء بقوة خارج القارورة! نفذت أولا رائحة بشرية مألوفة، تشبه مزيج تعرق وعطر... ثم بششش... شـ.. شـ.. وإهتزت القارورة!!

خرج منها شيء ضبابي مصحوباً بصفير خافت وحزين!!

غاب عنه بصره، وتراجع. تحاشى سقطة، وتداعى على صندوق كارتوني انفطس به وحشره بين الأغراض!

قبل أن تتضح له الرؤية، سمع صوتاً إنسانياً كهمس في حلم، بث فيه قشعريرة وأفقده قواه على النهوض :

- "سيدي.. لا تخف.. أني لك، ولأجلك.. جسدي لجسدك وروحي لروحك.. ملذات عشرات القرون والأسلاف أمنحها لك..."

تدريجاً، مع همس أنثوي ناضح بغنج ورجاء، انبجس مشهد حلمي وتكشف:

أنثى بجسد عار وشعر منثور وقامة باسقة كنخلة في صحراء! خصيلات ليلكية متوهجة تجري سواقي على نهدين وحلمتين نديتين!

دهشته عقدت لسانه وجمدت تفكيره، لكنه ما فقد قدرته على إدراك الجمال:

خصرها ووركها كانا كأساً بلورية ترسبت في قعرها قطرات نبيذ حمراء.. فخذاها كانا طويلين بضين مخضبين بحمرة مداعبات شرسة!

رغم العتمة، فإن (آدم) أبصر وجهها بوضوح: شفتين رطبتين كشريحتي بطيخ أحمر، وعينين مسبلتين برمشين كثين اسودين يحميهما حاجبان بهيئة سيفين معقوفين!

من يرى (آدم) في تلك الساعة سيتعرف بسهولة إلى ملامح غريبة ارتسمت على وجهه: حالة من يعيش خوفاً وشهوة في ذات الوقت.. كذئب يلتهم فريسته وعيناه على طلقة صياد قادمة. لكن خوف (آدم) لم يكن من موت بل من خطيئة. تجمد في حيرته. روحه استحالت إلى حلبة صراع همجي بين خوفه أن تنمسخ هذه المرأة الخرافية إلى أفعى تلتف عليه وتقصمه وتدنس بسمومها دماءه، وبين شهوته المتصاعدة لإلتهام هذا الجمال الذي تجاوز أشد الأحلام إغواءً.

إطمأن قلبه قليلاً وهو يراها تتحرك مثل بشر وتتضح بهيئة حورية في لوحة عارية من عصر النهضة. فتحت عينيها ورسمت إبتسامة طفولية ثم أمالت رأسها بغنج وأسبلت كفاً بين فخذيها وغطت بذراع نهديها. كانت قديسة حين تسبل رمشيها وتستحي، اما حين تفتح عينيها لتلتهم ما حولها فإنها ملكة داعرة!

هيئتها العجيبة جعلت (ادم) يسترجع صورة الحورية التي رسمها في خياله مع حكايات طفولته. ابوه كان يحكي عن جنة عرضها السماوات والأرض، فيها أنهار عسل وخمر ولبن، لكل مؤمن قصر فيه اربعون غرفة، وكل غرفة فيها أربعون سرير، وعلى كل سرير هناك أربعون حورية، وكل حورية من شدة جمالها وشفافيتها فإن الماء يبان وهوينساب في بلعومها! امضى عمره وهو يحلم بهذه الحورية لتمنحه لذة إحساس بالمطلق.

راح (آدم) يتفحص بدنه والأشياء حوله، عله يتيقن من حقيقة وجوده وعدم غوصه في وهم. فتح فمه وأصغى إلى صوته، انطلق كصراخ مكتوم في كابوس خانق :

ـ من أنتِ؟!

جاءه صوته نشازاً كأنه يسمعه عبر مذياع. انه في اعماقه، لم يكن ينتظر جوابها، فأحس بنوع من الأسف من سؤاله خوفا من ان يكون صوته سبباً في اختفائها. لكن شكوكه بواقعية ما يحدث امامه قد تعززت عندما رآها ترمقه بعينين خمريتين، وتفتح شفتيها وتتكلم بصوت ذي نبرات حلوة كضحكات طفل، وحادة ذات رنين كقعقعة سيوف:

ـ أنا ياسيدي منذورة لك ولذريتك. أسلافك جميعهم امضوا شطراً من حياتهم معي... كنت عشيقتهم السرية ورفيقتهم في ملذاتهم وانتصاراتهم، وفي متاهاتهم ونكباتهم وساعات احتضارهم. آخر رجالي كان أباك، ورثني عن أبيه وأسلافه.. منذ قرون لا تحصى وأنا أمضي خلودي في هذه القارورة، يتوارثني أبناء عن آباء. من يمتلك قارورتي يمتلك أسرار روحي وجسدي...

ظل مبهوتاً، وقد تدلى لسانه في فم فاغر! كل شيء كان يمكن أن يخطر على باله إلا هذا...! إمرأة خالدة الشباب والجمال طوع أمره ولإرضاء ملذاته! الآن فقط قد رأى بأم عينيه حورية أحلامه التي استقرت في أعماق طفولته. كان (آدم) عكسي، توقه إلى الموت يمتزج بلذة خلود روحه في الجمال المطلق، بينما انا خوفي من الموت يذوب في ارتعاشات الجسد وملذات الحياة. كم مرة منعته من الإنتحار ليتخلص من جسده الفاني وليطلق عنان روحه نحو أعالي كون متسام عن وضاعة الدنيا ودونيتها! وكم مرة منعني هو من ارتكاب خطايا تبتغي الإنتقام من المسؤولين عن بؤسي.

استطردت المرأة بعد ان وجدت منه الصمت:

ـ تمهل واسترح... هاك تلمسني وتيقن مني. إني بأجمعي لك فلا تخشني. دعني أدنو منك لأمسح عنك غبار العمر بحكاياتي عن أسلافك. هم كانوا ماضيّ، وأنت الان حاضري، وذريتك مستقبلي.. ديمومة نسلكم سر خلودي و...

وانقطع كلامها بصوت (مارلين). كانت تهبط درجات القبو وهي تنادي على (آدم) أن يستعجل قبل فوات موعد القطار. تلبك في حيرته وكاد يصرخ بزوجته أن تأتيه لتشاركه المعجزة، إلا أن المرأة ارتمت عليه بسرعة مستغيثة به هامسة أن لا يفضحها.. حياتها له وحده وكشفها للآخرين يعني نهايتها. قالت إنها ستعود إلى قارورتها حالاً، وعندما ينوي لقائها يكفيه أن يفتح غطاء القارورة فتخرج له. ثم أغمضت عينيها وكورت نفسها حول القارورة كأفعى في لهيب. طفق جسدها يتلوى ويهتز ويتمطى ويتقلص، ثم غابت في القارورة مثل زوبعة ابتلعتها صحراء في حلم صامت.

* * *

طبعاً، أنتم تتوقعون ما يمكن أن يقوم به صاحبنا. في اليوم نفسه وصل مع زوجته إلى قرية (ناندا العليا) الراقدة بين قمم الألب المثلجة. بعد منتصف الليل تسلل تاركاً اياها نائمة في المنزل الجبلي. حمل حقيبته السوداء الصغيرة حيث تختبىء القارورة، ووضع تحت إبطه سكينة مطبخ، تحسباً للمفاجآت السيئة. مضى خارج القرية يطبش بين ثلوج ذاب بعضها بأشعة شمس عابرة.

بلغ باحة مرتفعة ينتصب في وسطها عمود بث تلفزيوني. كانت باحة مفتوحة وآمنة ونظيفة ومتنعمة بنور تتخلله التماعات حمراء قادمة من قمة العمود. أخرج القارورة من حقيبته ووضعها على حافة السياج الإسمنتي المطل على الوادي. اختار هذه النقطة ليسهل عليه عند الخطر دفع المرأة من الحافة لتسقط في أعماق الهاوية. كانت السكين بيده بينما أصابعه تجهد لفتح الغطاء. عادت إلى قلبه ارتعاشات اللذة باللقاء المرتقب، والرعب من أن مارداً جباراً قد ينبثق ويمسك به من شعره ويرميه كحجر في اعالي الفضاء!

انفتح الغطاء، ونفدت إلى أنفه رائحة انثوية مألوفة، واندفع فحيح خافت! تراجع (ادم) بعيداً عن السياج وقبضته تشتد على السكين.. ثم، هكذا، عارية متوهجة وقفت أمامه من جديد، كما لو أن يداً إلهية خفية متمرسة بنحت الثلج والقمر قد امتدت وصنعت تلك المرأة العجيبة!

هيئتها وصوتها بثا تراخياً في قبضته...لأول مرة في حياته تدمع هكذا عيناه ليس حزنا ولا فرحا، بل انبهاراً!

- "د..ثر.. ني... ارجوك..الثلج يؤذيني.."

عندما أدرك أن نبرات الصدق في صوتها موشاة بنغمات مريبة مغرية، تفاقم تردد مشاعره بين شيمة شجعان وحذر مخدوعين. في أثناء ارتجافتها كانت المرأة تقترب منه منسابة على أطراف قدمين حافيتين، جاعلة الحصى الناعم يصدر صوتاً كحفيف حيوان زاحف. راحت بهدوء تلقي بذراعيها على كتفيه، واضعة قدميها على حذائيه حتى التصقت به. آنذاك فقط،خضع (آدم) لشيمته وخلع سترته الجلدية ودثرها بها. أحس بعريها عندما امتدت كفاه دون قصد إلى ردفيها. لم تنتابه رعشة لذة بل رعشة ترقب وتساؤل، كصانع مبتدىء يتفحص بضاعته. كان ينصت لأنفاسها المتقطعة ويتساءل إن كانت أنفاس برد أم شهوة. عبقت في أنفه رائحة

شعرها خليطا من حناء وأنواع عطور شعبية شائعة لدى ريفيات الوطن. لعن في سره نساء بلاده. راودته أحاسيس هي مزيج من ضغينة وأخوة، تنتابه في كل مرة يلتقي بإمرأة قادمة من الوطن.

لعلي أفضح لكم سراً: إن (آدم) حتى رحيله من الوطن لم يتمكن من ان يضاجع ولا مرة واحدة طيلة حياته. السبب ليس له أية علاقة بقدراته الجنسية. إنه يعود إلى سبب غامض ومجهول، من الصعب التكهن به. مرة وحيدة حاول بها حقاً، كانت قبيل هجرتنا. في الصيف، بعد إلحاح أقنعته أن يرافقني بسفرة إلى البصرة. هناك اصطحبته إلى أطراف المدينة، حيث تنتشر بيوت غجر طينية في (حي الطرب). بعد دقائق من انزوائه مع واحدة، قفل راجعا إلي وهو يبصق ويلعن. لم يحتمل مشهد عُري البغي، ولم يفعل شيئا. اعاد على مسامعي نظرياته عن جسد طاهر وحب مقدس وأن الجنس يجب أن لا يقترن برذيلة مال وقوانين سوق، وأن روحه في هذا الوضع تنفر من فعله وتتقزز من جسده وتجعله خامدا بلا شهوة ولا قدرة. بسببه ضاعت تلك السفرة هباءً. من خيبتي به فقدت أنا أيضاً شهوتي ورجعت معه.

حتى يوم تركنا الوطن، قام بمحاولات عديدة فاشلة لإقامة علاقة طبيعية مع امرأة. كم مرة دفعته إلى مغازلة زميلة في العمل أو رفيقة في التنظيم، إلا أنه كان يأبى. رغم إيمانه بأفكار الحرية فقد ظل دائماً ذلك النبي الطامح إلى الصفاء في كفاح وإخلاص عذري للمبدأ. كان يتفادى كل ما كان يعتقده إساءة إلى سمعة القضية ولو مجرد علاقة حب مع رفيقة. ظل بكراً حتى وصل إلى أوروبا.

الأعوام الثلاثة التي أمضيناها في الترحال كانت أعوام حرمان أسود حولته إلى متصوف ثوري لا يضاجع من الوجود غير نظريات حرب العصابات وصراع الطبقات وبناء المجتمع الفاضل. هنا في اوربا، وقبل أن يلتقي بزوجته صادف بضع مغامرات سريعة مع نساء من مختلف الأوطان ليست بينهن أية إمرأة من بلادنا. يأس من تكرار محاولاته لتذوق جسد إحداهن. جميع اللواتي التقى بهن كن، رغم شغفهن به وتعلقهن بمصاحبته، يمانعن في ممارسة الحب معه. ليست العفة وحدها كانت سبب تمنعهن، فالكثيرات منهم لم يتمنعن مع غيره لا من قبل ولا من بعد، لكن معه ثمة مانعا مجهولاً حتى هن كن يستغربن تأثيره الخفي!

- "خبرني أين نحن.. لما ودعني أبوك كانت هناك شمس غاربة وشتاء يطرق أبواباً. منذ قرون ما شفت مثل هذا الثلج!"

صار همسها أكثر إلفة واختلطت فيه نبرة غنج وفتنة ذلك النوع من النساء اللواتي يفرضن هيمنتهن على الرجال بإظهار ضعفهن وحاجتهن إلى الحماية. شفتاها كانتا تلامسان اذن(آدم) بأنفاس همسها، فتسربت قشعريرة خدر طفولي لذيذ، ذكرته بلمسات اصابع أمه وهي تفلي شعره، ثم إنسابت القشعريرة في لحمه وتركزت أسفل بطنه.

كأنه أراد أن يكافح مشاعر خجل وتأنيب ضمير أحسها دون سبب واضح, خاطبها بصوت مبحوح نابض بلوم واعتذار:

-"انتِ... أرجوك خبريني من أنتِ! ؟"

روحه المتصوفة التائقة الى التسامي، كانت تحوم مرفرفة كحمامة تسللت افعى إلى عشها. هكذا هو (آدم) منذ أن وعينا الحياة ظلت الخطيئة بالنسبة إليه رديفاً للشهوة. تجارب حياته زرعت فيه هذا الأحساس العميق بالإثم مع الشهوة. كم هي عميقة في ذاكرته تلك الليالي التي كان يصحو فيها وهو طفل مرتعب من أنين أمه وفحيح أبيه. مرت اعوام حتى أدرك أن أباه لم يكن يؤذيها بل يمنحها لذّة! في عمر العاشرة وقعنا في هوى تلك (السجينة) التي ما فارقت صورتها روحينا، وظلت كغيمة خالدة في سماوات جميع تجارب عشقنا. قبل عمر المراهقة وقع في حب (إيمان)، صبية موصلية شقراء لها وجه يشبه تفاحة مطعمة بعنبتين وحبة رمان. قرر أن يحبها حتى الموت مباشرة بعد خروجه من فلم هندي عن حبيبين، غنية وفقير، ماتا حزناً على فراش الحب.

خلال أعوام، لبث في أعماقه لا يصدق ان الأنثى يمكن أن ترتكب خطيئةَ أَنْ تصير عادية مثل البشر. إنها رمز الطهر والسمو عن عاديات الحياة وشهوات الجسد وحاجاته المتدنية. حتى بعد أن اكتشف الجنس ظلت تراوده تنهدات والديه ممتزجة بصرخات (السجينة)! صارت الخطيئة جزءاً حيوياً من لذته. اما انا فخطيئتي إن لم ارض شهوتي. عاماً بعد عام كان صراعنا يشتد ومسافة خلافنا تتسع. كان يؤنبني بعنف ويسخر مني كلما ضبطني أمارس لذتي على خيال خادمة الجيران.

رغم ذلك فإن حسا مشتركاً ظل يجمعنا: ذلك الشغف الأعظم بالجمال. هو، كان شغفه يحلِّق في الأعالى، في الروح السامية. أما أنا فشغفي يكمن في الأرض، في أحشاء الخليقة وثنايا الشهوة، في تجسدها ونكهتها وفرقعة نيران احتراقها!

* * *

ساد صمت لوقت بدا طويلاً. كان صمت ثلوج مطبق، حيث تتدثر الحياة في أعماق الأرض. اتكأت المرأة على السياج ورفعت وجهها إلى السماء، فحط بدر في حدقتيها. كان بدراً أبيض ينضح بقطرات حليب. لم ينتبه (آدم) للحظة انطلاق صوتها. كان جزءاً من صمت الجبل. خُيل إليه أن همسها ينبعث من غابات وبيوت القرية وقمم الجبال. انتشر صدى كلماتها في الفضاء وأضفى انبهاراً سحرياً على ليل مدن الوادي السابحة في شذرات مصابيح متوهجة وقمر ساطع. راحت تحكي له عن عشاقها من أسلافه: ملوك وقطاع طرق وقادة جيوش وأمراء فاسقون وخونة وجلادون وأنبياء وفلاحون وعشاق وشعراء وخصيان ومرتزقة. حدثته عن امجادهم وهزائمهم، عن محاسنهم ومساوئهم. منذ آلاف الأعوام يتوارثونها ابناء عن آباء، عاشروها وتنعموا بخلود اللذة في جسدها وروحها..

حكت وحكت له حتى الفجر. كانت كلماتها تدخل في أعماقه وتحمل ذرات كينونته لتسمو به إلى أقاصي الكون، تجتاز حدود المكان والزمان، ترحل به عبر عصور التاريخ، تنسخ روحه في أبدان الأسلاف وتنقله بين شعوب وأوطان وتجارب وذكريات ما زالت آثارها تحيا في كل ذرة من دمه وروحه.